الفنان العراقي والماء قديما وحديثا

★ خواطر تراثية بمناسبة صدور كتاب الفنان العراقي محمود صبري ـ المقيم حالياً في براغ ـ وعنوانه « واقعية الكم ـ فن العصر التكنو ـ نووي »

د. لميس العماري

إنه أمر يثير الفخر أن يرى المرء قوة الانجاز الحضاري لوطنه، وشموله وعمقه وامتداده في الزمن. وأزاء ذلك، فان الفكرة التي ترى أن الانسان الحديث في العراق ما زال يعطي، وما زال يكتشف حقولاً جديدة، ومازال يحمل مسؤولياته الحضارية، تلك التي حملها في القديم هي صحيحة تماماً. ونحن نتفق مع الدكتورة لميس العماري على تأكيدها لهذه الحقيقة. والحال أن المرء يستطيع أن يلمس هذه الحقيقة في اطار عملية تجديد البنى الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والنفسية الجارية. أن العصر العلمي، كطريقة في التفكير والعمل، يحقق أكثر من انتصار في مختلف نواحي حياتنا، لكنه لم ينتصر بعد. أن عشرات، بل مئات القضايا، ما زالت غير محلولة طبقاً لتصور الحقيقة العلمية المعاصرة، ومقابل ذلك، فأن التفكير الاسطوري الخرافي ما زال سائداً عند قطاعات كبيرة من الشعب، ويمكن للمرء أن يلاحظ بسهولة أن هناك تبايناً واسعاً في مستويات التطور التقني أو الثقافي، بل ويستطيع أن يجد تخلفاً عميقاً يشبه النزيف.

إن للعصر العلمي قوة المثل، وهذه القوة ليست هينة. أنها قوة عينية مؤثرة. لكن من المؤسف أنه يحصل دوماً أن قوة هذا المثل تؤدي الى بهر النظر لحد الغشاوة. يحصل هنا أن نرى وعياً معزولا استنتاجياً تبهره قوة المثل لتجعل منه من ثم صيغة لوعي يحيل اليه كل المستويات المتعددة للواقع ويلويها باتجاهه ويقسمها لمتطلباته دون أن يأخذ بنظر الاعتبار طبيعتها الخاصة.

إن محاولة هدم (الحدود المنطقية) لعلم من العلوم، وتعميم نتائجه بشكل تعسفي، لا تؤدي إلا الى اختراع أساطير جديدة غير مفيدة بالرغم من اطارها العلمي. والحقيقة أن نزعة تعميم نتائج وأساليب وطرق العلوم الطبيعية على الحياة النفسية والاجتماعية نزعة ليست جديدة، فاذا اكتشفناها اليوم في الفن أيضاً فأننا لن نستغرب ان نزعة علمية كاذبة كهذه إنما تعيش على نفايات العلم لا على نتائجه الحقة. وعلى هذا الأساس فنحن نختلف مع الدكتورة لميس العماري في تقييمها (لواقعية الكم) لمحمود صبري، إذ نرى أنها نتائج نزعة (علموية) وليست (علمية)، وأنها لا تلتزم بالحدود المنطقية لكل حقل، ولكل مستوى من مستويات الواقع.

في الوقت الذي نصارع هنا الأساطير القديمة التي لم تعد مفيدة سواء تلك التي تختص بالاله (أيا) أو غيرها، فأن علينا كما يبدو أن نقوم بجهد نقدي ازاء الأساطير الحديثة مثل (واقعية الكم) .. والمهمة الأخيرة يجب أن نفعلها في المستقبل القريب ونعد القراء بتحقيقها.

« آفاق »

Arnoud Sabri QUANTUM REALISM - An Art of the Techno-nuclear Age, Ramzi Est., Baghdad, 1975, 96pp.

اله الماء «ايا»

سبعة الأف عام من ايا الي H_2O

« بدون الشرق القديم ما كنا لنصبح ما نحن عليه الآن ، وبدون أن نفهمه لن نستطيع ابداً ان نفهم أنفسنا ، فثمار الحضارة الغزيرة جاءتنا من السومريين ، عبر الأشوريين والبابليين والمصريين واليونانيين والرومان . فالتنقيبات في ارض ما بين النهرين عرفتنا على اصول تطورنا الفكري. ان أبجديتنا وديننا ونظمنا القانونية وفنوننا كلها تفترض حلقة لامنتهية من التطور » .

ايفار لسنر

في «الماضي الحي»
The Living Past

● هذا المقتطف ، مثل كثير غيره في كتب علم الأثار ، يؤكد ان سومر هي أصل الحضارة في هذا الكوكب . ولا بد من التساؤل (اضافة للاعتزاز) عن المسببات التي جعلت سومر ، دون غيرها ، مهد الحضارة الأول . فهل كان نشوء اولى الحضارات في ما بين النهرين محض صدفة ، أم جاء كنتيجة لعملية صراع الانسان من اجل حفظ النوع والارتقاء ؟

ريتشارد كارنجتن في كتابه (« مليون سنة من تطور الانسان ») يلخص المسألة بكونها ضرورة حتمية أملتها حاجة الانسان الاول الى الماء ، فيقول :

● « نشأت اقدم ثلاث حضارات في احواض الانهر الثلاثة الكبرى ، ولعل اقدمها جميعا هي الحضارة التي نشأت في ما بين النهرين على ضفاف دجلة والفرات. فوجود الماء ، اما كنهر أو كمنبع دائم ، كان بالطبع ضرورياً لاقامة مجتمعات مستقرة . فالانسان يجب أن يشرب اضافة الى حاجته الى الطعام . كما ان الاستحمام كان ابداً جانبا اساسياً في تسليته . ومع ذلك فأن قيام الحضارات الاولى في وديان الأنهار لم يكن قد أملته هذه الحاجة الملحة فقط ، بل ان ذلك كان ضرورياً لاخصاب التربة بقصد تحسين المزروعات » .

● معنى هذا ان الحضارة لم تنشأ ـ حيث نشأت ـ اعتباطاً ، بل أنسجاماً مع منطق الحياة ومستلزمات التطور في الانتقال من حالة الصيد الى الزراعة حيث يلعب الماء العامل الحاسم . ولما كان الانسان مثل سائر الكائنات الحية منهمكاً في عملية ابدية من التكيف لمحيطه ، ومتميزاً عنها بمسعاه الدائم لتكييف المحيط لنفسه ، فأنه وجد في وديان الانهار في ما بين النهرين ومصر والهند بالضبط « أشد الظروف المادية ملائمة » لتحقيق الطفرة النوعية الجديدة بشكل حضارات

● استغلال الماء اذن كان العامل الحاسم في تحول

الانسان من الترحال الى الاستقرار ومن البربرية الى اولى مراحل « الحضارة » . وكان (الري) باجماع اراء الاخصائيين واحداً من « اهم الاكتشافات الجوهرية الرئيسة التي ادت الى نمو مجتمعات مستقرة كبيرة » .

● أن النظرة للعالم في المجتمع السومري كانت ترى شيئاً حياً في كل ظاهرة ، وتنسب الظواهر الكبرى لمجموعة الألهة ، وقد جسدت هذه النظرة ادراكها لاهمية الماء العظمى لما اسبغته على « إيا » (أو آنكي) إله الماء من صفات . فهو إله الخلق والحركة وإله الاشياء الجديدة وأمهر الصناع وإله الحكمة والخصب ، وهو ايضاً إله المياه السفلية والفوضى والدمار . ويتغنى نشيد سومري بدور (إيا) الحاسم في الزراعة المعتمدة على النهرين :

◇ « وإليك عهد بان تنقي الغمين الطاهرين .
من دجلة والفرات
وان تكثر اليانع من الخضرة ، وتكثف الغيوم
وتقذف الماء على الارض الحريث
وتنبت الفسائل في المزارع والحدائق . »

● ويؤكد النشيد من جانب آخر التحليل المعاصر بأن الماء كان عاملا حاسماً في استيطان الانسان في وادي الرافدين ، إذ يخاطب (إيا) قائلا :

◇ « وعندما ... تتوطن الآف من الناس
في طول البلاد وعرضها
انت الذي تعنى بقوتهم
انك في الحق اب لهم . »

من الترجمة العربية لكتاب
ما قبل الفلسفة . ص ١٧٤

● وعبر الفنان السومري عن ذات النظرة الاسطورية التي اكدها الشعر . فرسم إيا على صورة انسان تتدفق من كتفيه موجات الماء ، وهكذا ربط الماء بالأله بشكل عضوي . وعندما يضع احياناً سمكة في الماء المنبثق من إيا فلعله يريد التذكير بان السمك - هذا الغذاء المهم الآخر - يستمد حياته ووجوده ، كالماء ، من إيا الكريم المعطاء . وجد الفن ايضاً دينامية الماء (خلاف جمود الارض والسماء) . فنجد في احد الاختام مثلا إيا الحكيم مستقراً على عرشه وسط فوران المياه السلفية تنبثق من كتفية موجتان ، وتحف بعرشه أربع موجات تتقاطع في اركانه الاربعة ، وعلى مقربة من إيا جثا البطل الاسطوري جلجامش على ركبتيه يحاول عبثاً وقف الطوفان الذي ينهمر عليه من الاعالي .

● **الفنان السومري اذن خدم نظرة زمانه للعالم فصور الماء كأله ورسمه في حركته وعطائه وغضبه وسخطه الذي يقسر حتى انساناً مثل جلجامش على الركوع .**

ولكن اسطورة « عندما في الاعالي » تضيف بعداً آخر لعلاقة الانسان بالماء . إذ تبعاً لهذه الاسطورة فأن إيا هو الذي حكم على البشرية بالكدح الدائم ، لكي يحرر الألـه من العمل الشاق . فبتوجيه منه يقول مردك :

◇ « لسوف اخلق للو ، واسميه انساناً ،
لسوف اصنع للو ، الانسان
وليحمل عبء كدح الآلهة . »

ثم تستمر الملحمة ....

◇ وعندها فرض إيا الكدح على الانسان
وحرر الآلهة . »

(ما قبل الفلسفة - ص ٢١٦)

● أي أن الانسان في بداية استقراره الحضاري ، عندما قدس إيا (الماء) واعتبره مصدر رخائه ووجوده ، فأنه أدرك ضرورة دفع ضريبة باهضة ثمناً لذلك : الكدح الدائم كشرط أبدي تفرضه الآلهة عليه . لقد حرر إيا الآلهة من العمل وجعل الانسان عبداً لها .

● هذا على صعيد الادب والفن . أما في مجال الدين والتطبيق اليومي فان السومري اضطر أن يتعلم مبكراً حكمة العيش مع هذا الأله الذى «لم يكن له قرابين اقرانه الآلهة من مثيل» . وهكذا بنى له نصبين فنيين (حضاريين) : الزقورة ، وشبكة القنوات . في المعبد ركع السومري لايا وقدم له القرابين طلباً لرحمته أو للكف عن غضبه ، ولكن سدوده على ضفاف الرافدين - رغم بدائيتها - جعلت إيا يركع له .

● هندسة السدود إذن التي تبدو كعمل تقني مجرد هي في بعدها التاريخي اكثر التصاقاً بالواقع وبوظيفة الفن الاجتماعية حتى من النصب الفنية التقليدية (المعابد مثلا) ذات الوظيفة الاجتماعية المباشرة . لان صانع السد ، اضافة الى تغييره شكل الطبيعة ، حقق مهمتين جوهريتين معاً : الاولى مباشرة آنية (حياة الجماعة - بحفظ مصدر عيشها من دمار الفيضان) والثانية حضارية مستقبلية بوضع أسس الطفرة النوعية الاجتماعية في حياة الانسان (أسس استقراره وتطوره الحضاري اللاحق) . لقد كان الري فعلا احد الاكتشافات الجوهرية المهمة التي ساهمت في ظهور المجتمعات الحضارية الكبيرة . لذا يمكن القول ان السومري - اول انسان حضاري - راقب مورد رزقه (الماء) ثم تحايل عليه (بالسدود والقنوات والمبازل) فكيفه لصالحه ، وبهذا وضع اول اساس لوجوده الحضاري في الطبيعة . ترحال الانسان السابق بحثاً عن الغذاء إذن كان أقرب ، كوسيلة للعيش ، الى الجماعات الحيوانية منه لمجتمع انساني . وهكذا فأن القنوات والسدود يمكن ان تعتبر أول محاولة انسانية (علمية فنية) للسيطرة على الطبيعة .

● وحيث اندمجت في المراحل الاولى مهمة المعبد والسد ، وتداخلت مهمة الكاهن في مراقبة النجوم لاحتساب مواعيد الفيضان ، مع واجب مهندس الري في شق القنوات لتصريف مياه الفيضانات (كلاهما في الفكر الاسطوري السومري من وظائف إيا وزير زراعة الكون) ، فأنه مع انتقال ثقل العملية الانتاجية ، تدريجياً ، من الزراعة

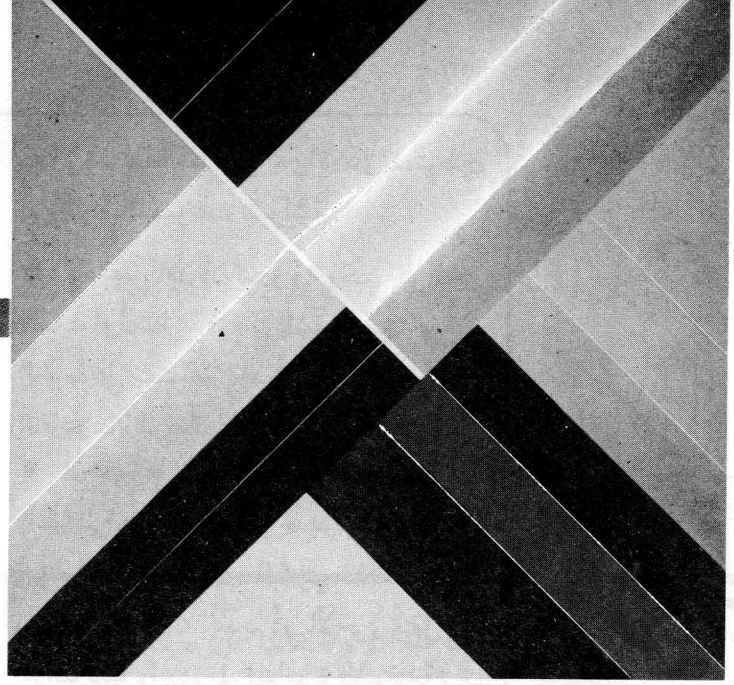

لوحة زيتية
تمثل الماء H_2O
في واقعية الكم
لمحمود صبري

ل الصناعة انفصمت الوحدة وأخيراً رجحت كفة السد ضد المعبد : **العلم ضد السحر .**

● لقد استغرقت هذه العملية زهاء الفي عام ، منذ القرن الثاني قبل الميلاد حينما استخدمت قوة الماء لتسيير الطاحونة المائية الاولى ، وحتى نهاية القرن الثامن عشر عندما استخدمت اول ماكنة بخارية كعامل رئيس في الثورة الصناعية . وهكذا فبعد ان كان الماء في الزراعة هو العامل الحاسم والاساسي للخصب والقوت (ولذا كان يعد كموضوع نهائي - **كغاية** -) فانه في الصناعة لم يعد الا **وسيلة** ، كقوة محركة للماكنة فحسب، وهكذا اصبحت الماكنة رمزاً للعملية الانتاجية الصناعية ، وأفل مجد - محركها - الماء . ومع ازدياد حاجة الانسان للطاقة (اي حاجة الماكنة للوقود) فأن إيا الذي كان « إلهاً لا مثيل له بين الآلهة » لم يعد الا مورداً واحداً للطاقة بين عدد من الموارد المهمة الاخرى (كالنفط مثلا) .

● سقوط (إيا) اذن جاء نتيجة طبيعية لتغير دوره في العملية الانتاجية . لقد فقد مكانته المقدسة - تماماً كماحصل عليها في بدء الاستقرار الحضاري - كنتيجة موضوعية لعملية تطور الانسان وارتقائه الحضاري .

● وبحلول القرن العشرين دخل الانسان عصراً جديداً - عصر الفضاء والذرة . وهذا يعني أن البشرية تقف الآن ، بدرجات متفاوتة من الادراك ، على اعتاب طفرة حضارية جديدة تشبه في ابعادها انتقال الانسان الاول من الترحال الى الاستقرار ومن البربرية الى الحضارة ، ولكنها تعاكسها في الاتجاه . فالبشرية اليوم تدشن عهد غزو الفضاء الخارجي ولهذا فانها تواجه عملية ثورية كبرى للانتقال من الاستقرار «الارضي» الى **الترحال** الفضائي الكوني . هنا يقف الانسان مرة اخرى وجهاً لوجه مع إيا . لكن تعامله معه الآن لا يمكن ان يعود لثنائية المعبد والسد . أن اللقاء الجديد هو مجابهة على مستوى أعلى واكثر تعقيداً الى حد كبير . فحيث تعامل السومري مع الماء على مستواه السطحي كمادة سائلة ، ورسمه وفقاً لفكره الاسطوري كإله فان حفيده اليوم (في العراق وغيره) مضطر للتعامل معه على مستوى أعمق : مستوى تركيبه الداخلي، وهو مضطر ايضاً لرسمه وفقاً لفكره العلمي اي كعملية (H_2O) لخدمة الانتقال نحو **استعمال** جديد نوعياً للماء ، أي استعماله كطاقة . اننا اذن امام انتقال في التعامل مع الماء : الانتقال من المظهر (كسائل) الى الجوهر (كطاقة) . فقد استطاع الانسان تقليد عملية توليد الطاقة الجارية في الشمس (التحام Lusion نوى الهيدروجين لتشكيل نوى الهليوم) ، واكتشف « الوقود » اللازم لاجراء مثل هذه العملية مختبرياً (أي الديتريوم نظير الهيدروجين) . وأذا تذكرنا ان هذا « الوقود » يوجد بكميات هائلة في حياة المحيطات ($\frac{1}{8}$ غرام منه موجود في كل غالون ماء) وأن كلفة استخراجه لاتتجاوز ٤ سنتات ليس إلا ، أدركنا ان السيد إيا يعد الانسان الجديد مرة اخرى بمصدر جديد للحياة! غير ان عطاءه الجديد هو كسابقه ، عطاء مشروط مزدوج ! انه يسد حاجة الانسان اللامتناهية للطاقة ، غير انه يهيء له ايضاً امكانية لامتناهية لتدمير نفسه ! لقد ارتبط « الطوفان » مع الماء في اذهان العراقيين القدماء ، وترتبط القنبلة النووية مع الطاقة النووية في ذهن الانسان المعاصر .

● **وكما خدم الفنان السومري النظرة الفكرية الاسطورية بتصويره الماء (مثلاً) كاله ، فان مسؤولية الفنان الاجتماعية الأساسية اليوم هي بالضبط المساهمة في نشر النظرة العلمية المعاصرة، أي بتصوير الماء. مثلاً، على مستوى عملياته الداخلية كتفاعل من عنصري الهيدروجين والأوكسجين .**

● هنا تكمن اهمية النظرية الفنية الفلسفية الجديدة (واقعية الكم) التي تساعد انسان عصر العلم في التعرف على مستوى اعمق من الوجود المادي : المادة كما هي وليس كما تبدو للحواس المجردة ، آي المادة كطاقة وليس ككتلة. وواقعية الكم باستنادها الى معطيات العلم الحديث ، وتقديمها رؤيا بلاستيكية لهذه المعطيات ، تجعل العلم في متناول اوسع الجماهير وبالتالي تهيء « اطفال عصر العلم » [كما يسمي برخت الانسان الجديد] **للطفرة النوعية الجديدة** التي لن تتحقق ما لم يسيطر الانسان على الماء « كطاقة » كما سيطر السومريون على الماء « كسائل » . وعندما تسخر الطاقة الهائلة المستخرجة من الماء في أتمتة شاملة ، ويتحرر البشر من « الكدح» حينذاك يكون الانسان قد انتصر فعلا على « إيا » لانه سيحرر البشر من كدح العمل ويجعل « إيا » عبداً لهم . عند ذاك تتحول الاساطير التي ستروى للاطفال في تفسيرها للكون من المستوى الاسطوري الى المستوى العلمي ، من مستوى العفاريت والحوريات الى مستوى التفاعلات الذرية . عند ذاك سينظر لنا ، نحن الذين نتحدث اليوم عن هذه الافكار المستقبلية ،

كبرابرة - تماماً كما ننظر نحن الآن الى المستوطنين الأوائل في المجموعات النيوليثية .

● ماذا يعني اذن أن تبرز في وادي الرافدين بالذات اول نظرية فنية - علمية للتعبير عن الطبيعة على مستواها الجديد ، على مستوى التفاعلات الذرية ؟

● أن ظهورها يعني قبل كل شيء أن انسان وادي الرافدين يشترك من جديد كعامل فعال في بناء الصرح الحضاري البشري . أنه بذلك يستعيد صلته بتراثه القديم أو بالأحرى ينقل هذا التراث دفعة واحدة الى المعاصرة فالمستقبلية .

● **أن واقعية الكم تصبح بهذا المعنى مساهمة عراقية في تطوير الفكر الانساني المعاصر** (الفكر العلمي) كما ساهم الفن السومري من قبل في تطوير الفكر الانساني لزمانه (الفكر الاسطوري).أو أنها تصبح الملحمة الفنية الجديدة التي يقدمها الانسان العراقي المعاصر لتدشين الحضارة الانسانية الجديدة كما كانت الملاحم الفنية والادبية للانسان العراقي القديم تدشيناً للحضارات الانسانية الاولى .

● **الفن العراقي الحديث إذن في محاولته الخروج من الواقع التجريبي القلق للحركة التشكيلية العربية يعثر بفضل واقعية الكم على المفتاح لحل أزمة الفن في العالم الواسع ايضاً.** هنا تكمن الاهمية الاستثنائية لواقعية الكم وقيمتها الاجتماعية . اننا نرى في كتاب (**واقعية الكم - فن العصر التكنو - نووي QUANTUM REALISM - an art of the Techno-nuclear Age**) صورة الوعي العلمي الجديد . الآن وقد صدرت نظرية واقعية الكم باللغة الانكليزية واصبحت في متناول نخبة من ابرز نقاد الفن ومؤرخيه في أوربا (وستغزو العالم الاوسع عندما تنشر قريباً المجلة النظرية العالمية للفن الاستعراض الذي تهيؤه لهذا الكتاب) . بقي أن ترتفع في سوح بغداد النصب الفنية للانسان الجديد - انسان العصر العلمي . وحينئذ ينبغي أن يعيد الفنان محمود صبري تسمية لوحته « الماء H_2O» مثلا ليجعلها اكثر التصاقاً بتراث العراق فتصبح « إيا الجديد H_2O» .

قراءة لو
التاريخ الع

في المنـ
التقدمي الجدا
الدعـ
لتاسيس واستج
المنطلقا
الفكر
والثقاف
لتاريخنا العرب

صديق محيس